الأسلوب الخطابي ووسائله وخصائصه :

أولا–تعريفه:هو طريقة أداء المعانى وعرض الأفكار التى تتضمنها الخطبة أو هو مجموع الوسائل التعبيرية التى يطرح عبرها الخطيب الأفكار والمعانى ، وعلى هذا نجد أن الأسلوب يتضمن الألفاظ والتراكيب التى صيغت فيها المعانى والأفكار .

ثانيا–أثره وأهميَّته:تتّضح أهميَّة الأُسلوب من زاوية افتقار كلّ متكلِّم وكاتِبٍ إليه،إذ هو القالب الذي تُصَبّ فيه الأفكار والمعاني لتصل عبره إلى أذهان الناس وقلوبهم,ولولا الأُسلوب لما تمكَّن أيُّ إنسانٍ من نقل ما يدور في خاطره من الأفكار إلى الآخرين. فلاغنى للمتكّلم عن الألفاظ والتراكيب التي ينقل عَبْرها أفكاره وآراءه وعواطفه إلى الجمهور المستمع إليه إنْ كان خطيباً أو مدرِّساً واعظاً أو محاضراً معلِّماً وكذلك الكاتب، أيّاً كان شأنه في مضمار الكتابة ،أديباً كان أم مؤرّخاً أو مؤلِّف علم ما أو كاتب مقالة أو مدبِّجَ رسالة أو غير ذلك،هو بحاجة إلى الأُسلوب الذي يصبّ في قنواته آراءه وأفكاره ومشاعره لتصل إلى قُرّائه. وبقدر ما يكون أُسلوب الخطبة قويّاً وجميلاً وواضحاً بقدر مايكون تأثيره في النفوس عميقاً واستيلاؤه على الأذهان والقلوب بليغاً وتحريكه للمشاعر والأحاسيس قويّاً. فإذا خلا أُسلوب الخُطبة قويّاً من القوَّة والجمال والوضوح فَقَد شدَّة تأثيره قي النفوس وسلطانَه على القلوب والمشاعر، وأدّى بذلك على نُفْرة السامعين وسآمة نفوسهم.فالخطبة الناجحة هى التى يحسن الخطيب اختيار ألفاظها ، وأساليبها ، ويكون ذلك بتمكنه من اللغة العربية وحفظه لكثير من كلام الفصحاء والبلغاء .

ثانيا–وسائل الأسلوب الخطابي

1– الألفاظ : تعتبر الكلمة أساس التعبير عن المعنى إذ إنَّ كلام الإنسان بجميع تراكيبه ما هو إلاّ مجموعة ألفاظ ، فنأخذ من ذلك أنّ المعنى العام للجملة يتكوَّن من مجموع المعاني التي تدلُّ عليها ألفاظ تلك الجُملة وأنّ المعنى الكلِّي للّفظة الواحدة يتكوَّن من المعاني الإيحائيّة التي تدلُّ عليها أحرف تلك اللّفظة، وهذا باب واسع في فقه اللُّغة نكتفي هنا بمجرَّد الإشارة إليه.ولذا ينبغى أن يكون اللفظ الذى يستعمله الخطيب يشتمل على المواصفات الآتية :

أ – أن يكون من الألفاظ السهلة الواضحة التى يمكن للناس فهمها واستيعابها ، وضرورة أن يبتعد عن الألفاظ الوحشية الغريبة .

وقد تكون الكلمة من العربية الصحيحة التى كانت شائعة عند العرب ، ولكنها غير شائعة عند الجماعة التى يخاطبها ولهذا تستهجن مخاطبتهم بها ، لأن الخطبة للتأثير فيهم ، وإثارة وجدانهم لا يكون إلا بما هو مفهوم لهم ، مأنوس الاستعمال عندهم .

ب–ألا تكون الألفاظ مبتذلة ، وألا ينزل بتعبيره إلى درجة العامية ، فيذهب رُوَاءُ الخطبة ، ويضيع جلال معانيها ،كأن يقول مثلا : " أتعشم " بدلا من " أرجو " أو " آمل " أو " أطمع " أو يستعمل لفظ " أَفْتِكِر " بدلا من " أظن " أو " أعتقد " أو " أحسب "

ونحو ذلك من الألفاظ العامية ، التى شاع استعمالها على ألسنه خطبائنا ، وهذا ولا شك دليل الضعف ، حيث لا يستطيعون انتقاء ألفاظ خطبهم من غير أن يُغْرِبُوا [1] ويبتعدوا عن المفهوم المألوف . واستعمال العامية المبتذلة مع من يفهم الفصحى خطأ كبير .

فعلى الخطيب أن ينتقى ألفاظ الخطبة من غير أن يُغْرِب ، فيبعد عن المفهوم المألوف ، ومن غير أن ينزل فينطق بالمُبْتَذَل أو العامى فى حضرة من يفهم الفصحى.قال بِشْر بن المُعْتَمِر – فى وصاياه للخطيب – " فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تُفْهِم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسعة ، التى لا تَلْطُف عن الدَّهْمَاء ، ولا تجفو عن الأَكْفَاء فأنت البليغ التام "

ج . أن تكون فى الخطبة ألفاظ مناسبة مثيرة لخيال الجماعة ، موقظة لذكريات حية فى نفوسهم ، فإن كل جماعة عندها طائفة من الألفاظ إذا ذكرت أثارت خيالات تهز النفس بالسرور والاطمئنان ، أو بالسخط والغضب ، لأن لكل جماعة أسلوب يناسبهم ، وطائفة من الألفاظ تثيرهم وتهز مشاعرهم إذا ذكرت ، مثل الألفاظ التى تتحدث عن فريضة الحج ، وتذكر " الحرم الشريف " ، " ومقام إبراهيم " ، " والبقيع " ، " وزمزم " إذا تحدث بها الخطيب بين جماعة مسلمة عرف عنها حبها وتشوقها لأداء فريضة الحج ، وتذكر هذه الألفاظ فى مناسبتها ، وفى فترة باب القبول للتقدم لأداء فريضة الحج .

د – والتعبير الحسن يتطلب اختيار الألفاظ الجزلة فى مقامها ، والرقيقة كذلك (أى التى تناسب مقامها) ففى نحو التهديد والفخر ، وإثارة الحمية ، والحماسة والحث على الجهاد يختار الجزلة القوية . وفى نحو إظهار الأسى والألم ، يختار الرقيق من الألفاظ .

والمراد بالجزل القوى : أن يكون متينا مع عذوبته فى الفهم ولذاذته فى السمع ، لا بمعنى أن يكون وحشيا متوعرا فيه عنجهية البداوة .. كما أن المقصود بالرقيق من الألفاظ : هو اللطيف الرقيق الناعم الملمس لا بمعنى أن يكون ركيكا سَفْسَافا .يقول ابن الأثير : " وسأضرب لك مثالا للجزل من الألفاظ والرقيق فأقول : انظر إلى قوارع الألفاظ عند ذكر الحساب ، والعذاب ، والميزان ، والصراط ، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئا من وحشى الألفاظ ولا متوعره ..ثم انظر إلى ذكر الرحمة ، والرأفة ، والمغفرة ، والملاطفات فى خطاب الأنبياء ، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسافاً . فمثال الأول – وهو الجزل من الألفاظ – قولة تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت ، وهم أعلم بما يفعلون ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً ، حتى إذا جاءها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزينتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين

[1] أى : يستعملوا غريب اللغة .

اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَرًا حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء .. فنعم أجر العاملين).

فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله ، وذكر النار والجنة ، وانظر هل فيها لفظة إلا وهى سهله مستعذبة على ما فيها من الجزالة ؟ وأما مثال الثانى — وهو الرقيق من الألفاظ — قوله تعالى فى مخاطبة النبى ﷺ: والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى،ولسوف يعطيك ربك فترضى...إلى آخر السورة .وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان وهكذا ترى سبيل القرآن فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة .."

ويقول بعد كلام طويل : " اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجَزْلة تتخيل كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج ، ولذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلموا سلاحهم ، وتأهبوا للطِّرَاد ، وترى ألفاظ البُحْتُرى كأنها نساء حسان عليهن غلائل [2] مُصَبَّغَات ، وقد تحلَّين بأصناف الحلى ، وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته هاهنا ، وجدتنى قد دللتك على الطريق ، وضربت لك أمثالا مناسبة " .

ولعلنا بعد نقل هذا الكلام عن ابن الأثير نتبين ونتصور الألفاظ الجزلة والألفاظ الرقيقة،وعلى الخطيب أن يضع كل نوع منها فى موضعه فعليه أن يختار الجزل من الألفاظ حين يكون فى حاجة إلى قرع الحس وإثارته،وعليه أن يختار رقيق الألفاظ إذا أراد أن يمس شعور المخاطبين مساً رقيقا ، لأن المقام يقتضى ذلك .

2–التراكيب: نقصد بالتراكيب: العبارات والجمل التي تتألف من عدة ألفاظ بمجموعها معنىً معيناً . وإذا كانت التراكيب سهلةً حسنة السَّبك جارية على سَنَن العربية وطرائق تعبيرها ،خاليةً من التعقيد وتنافر الكلمات مؤتلفة مع جوّ الخطبة العام متناسبةً من حيث طولُها وقصرُها مع المعاني المقصودة كانت الخطبة قويَّة التأثير جميلةَ العَرْض محمودةَ الذكر بالغة النفع .وعلى هذا ا تجب ملاحظة الأمور التالية:
أ – أن تكون التراكيب قويّة متماسكة محقّقة للمعنىّ المقصود في أجمل صورة لفظيّة سليمةً من الضعف والتفكُّك : وتفسير ذلك : أن تكون ألفاظ التراكيب متناسبة في اجتماعها لتحقيق المعنى المراد،متآلفةً في تعانق حروفها وتناغم حركاتها وإيحاء لفظها وجرسها الموسيقيّ وهذه الخصلة الرائعة نجدها واضحة في تراكيب القرآن الكريم وجمل الرسول عليه الصلاة والسلام في خطبه ومواعظه.
أمّا في القرآن الكريم فنقرأ مثالاً على ذلك قوله تعالى:(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ.إِنْ هَذَآ إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ.)فنلاحظ في هذا النصّ القرآنيّ الكريم التصويرَ الدقيق للحالة النفسيّة الباطنة والظاهرة التي كان عليها الوليد بن المغيرة في موقفه من القرآن الكريم بعد أن سمعه من رسول الله ﷺفجاءت الألفاظ موحية والتراكيب معبّرة تعبيرا دقيقا عن التقلّب الذي اعترى الوليد أثناء تفكيره وتقديره ومصوِّرة تصويراً رائعاً لحالته النفسيّة في إدباره واستكباره ثمّ افترائه الكذب وادعائه الباطل فاستطاع هذا النصّ القرآنيّ المجيد بجمله القصيرة الخاطفة ، وأفعاله الكثيرة المتتابعة ، وإيقاع

[2] جمع غلالة : الثوب الذى تشده المرأة على عجيزتها تحت إزارها تضخم به عجيزتها . لسان العرب 5 / 3287 .

حركات حروفه المتناغمة والتّواؤم البديع بين أنفاس ألفاظه وتراكيبه أن يرسم ملامح تلك الشخصية المهزوزة المضطربة ، ويعرضها أمام خيالنا بصورة ساخرة ، وهي تصل على قرارها الجائر.

ب-أن تكون التراكيب متوازنة في ترتيب ألفاظها:بحيث تنزل كلُّ لفظة منها في مكانها المناسب ويأخذ بعضها بيد بعض في نظام محكم وترابط دقيق،فتتجنّب بذلك عيب التعقيد اللَّفظيِّ الذي يورث الكلام غموضاً يجعل السامع يستصعب فهم المراد منه.وإذا لم يتمكَّن المستمع من فهم ما يلقى عليه من الكلام لم تتحقّق له فائدته ولم تصل إليه غايته ولقد جاء في قواعد البلاغة العربيّة أنَّ من عيوب الكلام وأسباب خروجه عن مسار فصاحة اللَّغة العربيَّة وسننها التعقيدَ اللَّفظيِّ ومن صوره التقديم والتأخير المضلُّ عن المعنى المراد، وعود الضمير على متأخِّر لفظاً ورتبة. وإذا شئنا مثالاً من كلام الخطباء نذكر ما يلي:

تحدّث أحد الخطباء عن الأخلاق، فقال:إنّ في حقيقة الأمر الأخلاقَ أساسُ بقاءِ واستقرارها الأُمَّة.فعند قراءة هذه العبارة أوسماعها صعوبة في فهم المعنى المراد منها وهذا يرجع إلى مااشتملت عليه من تقديم وتأخير في ألفاظها ووجود الفواصل بين كلماتها وهذا عيب في الكلام يورث التراكيب قُبحاً والجمل تعقيداً والمعنى غموضاً فيستعصى على سامعه فهم مضمونه وإدراك مقصوده,وإذا أردنا أن نصوغ تلك العبارة صياغة صحيحة، وجب علينا أن نقول :إنَّ الأخلاق في حقيقة الأمر أساس بقاء الأُمة واستقرارها.

ويدخل في هذا الباب استعمال كلمات للدلالة على معانٍ لا تصلح لها، فيؤدِّي ذلك إلى التباس المعنى المقصود على السامع، ويقع هذا كثيراً في المجازات الخاطئة كقولنا: فلانٌ سيفٌ في العلم ،والصواب أن نقول : (بحر في العلم) أو (جبل في العلم) ونحوه قول أحدهم : (فتواثب الصائمون في رمضان إلى المساجد ،وتشابكوا على تلاوة القرآن الكريم...)،ولا ريب في أنَّ فِعْلي(تواثب وتشابك) لم يستعملا هنا في مكانهما المناسب وأراد المتكلِّم الدلالة بهما على غير ما يصلحان له.

ج- خلوُّ التراكيب من ظاهرة التكلّف اللفظيّ وسلطان السجع:وتفسيره عند البلاغيين أن تتوافق الفاصلتان في الحرف الأخير ولا يكون إلاّ في النثر. وهو ممجوج غير مستحَبّ إذا كثُر وشاع في الخطبة أو أيّ نصّ نثريّ ، لأنّه يؤدّي إلى انشغال السامع بإيقاعاته وبريق الصنعة في ألفاظه عن مضمون الخطبة ومعنى النصّ اللَّذين استشرى فيهما. وأمّا إذا جاء عفويّاً في عبارات الخطبة وكلماتها فهو مقبول مستحسَن لأنَّه يزيد من جمال الكلام ويضفي على ألفاظه وتراكيبه رونقاً وبهاءً فيعذب في الأذان سماعه ويؤثِّر في النفوس إيقاعه. ومن أمثلته في ومن أمثلته في حال استحسانه وعفويّته قول رسول الله : ﷺ إنّكم تقلُّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع".....

وقول أحد الخطباء: أيّها الإخوة المؤمنون ، اعملوا بهدي القرآن الكريم واستقيموا على سنّة النبيّ العدنان واعرضوا عن الهوى، والزموا سبيل التقوى ، تفلحوا وتنجحوا وتبلغوا وتنجحوا، وتبلغوا منازل السعداء ومقام الأتقياء في الدنيا والآخرة.....

د- خلوُّ التراكيب من التكرار غير المناسب: تقدَّم معنا في الحديث عن الألفاظ أنّ من محاسنها في الخطبة عدمَ تكرار اللفظ الواحد منها لغير حاجة داعية إليه، ونذكر هذه الملاحظة أيضاً في التراكيب،فتكرار التركيب الواحد أكثر من مرَّة في الخطبة يُعدُّ من العيوب المخلَّة بتماسك الأسلوب ودليلاً على ضعف قدرة الخطيب على تحصيل المعاني التي يريدها بتراكيب تفي بالمقصود،وتجعل السامع في حالة تنبُّه دائمة من بداية الخطبة إلى نهايتها، فيتمكن بذلك من استيعاب معظم أفكار الخطبة وأكثر معانيها . فإذا كرّر الخطيب الجملة

أكثر من مرّة بلا داعٍ مناسب، وأورث سامعيه السآمة والضجر، وجعلهم ينصرفون عن متابعة تحصيل الفائدة المطلوبة من خطبته .وأمّا إذا دعت الحاجة إلى تكرير الجملة أكثر من مرّة فهذا لا يسيء إلى قوّة أُسلوب الخطبة ولا يشتّت ذهن السامع عن إدراك مضمونها وفهم معانيها وإنّما يزيد من قوّة تأثيرها في نفوس المستمعين ، ويُضفي على أسلوبها سِحْراً وجمالاً وجاذبيّة.

ونلاحظ هذه الظاهرة واضحة في القرآن الكريم وفي كلام إمام المرسلين محمدﷺأمّا في القرآن الكريم فوجدنا مثاله في سورة (الرَّحمان)التي تكرّر فيها قوله تعالى: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فأعطى تكرار هذا التركيب القرآنيّ تأثيراً ساحراً في نفس القارئ وأضفى رونقاً وبهاءً على سياق تلك السورة الكريمة التي لا يملُّ تاليها،بل يحسّ بأعماقه ومشاعره تزداد انجذاباً نحوها كلّما أكثر من تلاوتها.

ومثال أيضاً في سورة (القمر) التي تكرّر فيها قوله تعالى:(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ), فمن قرأ هذه السور أحسَّ بتآلف ألفاظها وترابط آياتها وتناسق تراكيبها ووحدة سياقها وشعر بأنَّ التكرار كان عاملاً فعّالاً في تحقيق ذلك التآلف والترابط والتناسق بحيث لو انعدم أو قلَّ عدده عما هو عليه لأدَّى ذلك إلى تفكُّك وحدة السياق. وهذه الظاهرة الأسلوبيَّة الرائعة اختصَّ بها القرآن الكريم دون غيرها من الكلام ،لأنَّه كلام الله الذي يعلو ولا يُعلى عليه.وأما في كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، فنذكر مثالاً على ظاهرة تكرير التركيب الواحد ما جاء في خطبته الشريفة التي خطبها في حجَّة الوادع حيث كرّر قوله : " ألا هل بلغت؟! اللّهمّ اشهد " في مواضع متعدِّدة من خطبته، فكان ذلك التركيب ينزل في موضعه المناسب في سياق الخطبة فيزيدها تناسُقاً وقوّة وتأثيراً في نفوس المخاطبين الذين يُحِسّون بأهميّة ما يُلقى عليهم وضرورة وَعْي ألفاظه وفهم معانيه بلا تفويت ولا تفريط.

إنّ التزام تكرير هذه العبارات أثناء الخطبة لا يُعدُّ عيباً في أسلوبها إذا حدث التكرير في مكانه المناسب وحسب الحاجة الداعية إليه ، وأمّا إذا كررت هذه العبارات في الخطبة الواحدة في غير موطنها المناسب فسوف يؤدّي تكريرها إلى تقطع تسلسل الألفاظ والتراكيب في سوق المعاني فيتشتَّت نظام الأفكار، وينتاب ذهنَ المستمع الشرودُ عن متابعة إدراك المعاني الخُطبة، ويفوته الحظُّ الوافر من فائدتها .

ومثال ذلك قول أحد الخطباء : إنّ المعاصيَ بريدُ الكفر ومطيَّة الهلاك في النار ، اجلْ معشر المؤمنين ، فمن اعرض عن المعصية وراقب ربَّه، أجلْ معشر المؤمنين ، فقد ربح في الدنيا والآخرة ، أجل معشر المؤمنين أما في الدنيا فيكون مطمئناً في حياته لا يعرف القلق ولا الشّقاء اجل معشر المؤمنين وأمّا في الآخرة فيكون من السعداء الفائزين بنعيم جنّة الرحمن.فنلاحظ في هذا المقطع الخطابيّ أنَّ تكرار عبارة: (أجلْ معشرَ المؤمنين) لم يقع في موطنه المناسبة، بل جاء ذلك التكرار فاصلاً بين أجزاء الفكرة الواحدة فترتَّب عليه تشتُّت ذهن السامع عن فهمها حيث كان ينبغي أن تُساق إليه عبر ألفاظها وتراكيبها دونما فاصل أجنبيّ. إلى جانب كونه سبباً في ضعف الأسلوب وتردَّية عن المستوى اللائق بالخطبة المؤثِّرة.

هـ – طول التراكيب وقِصَرها:تحتلُّ التراكيب القصيرة مركز الأهميّة في سياق الخطبة التي تعتمد اعتماداً كلّياً على صوت الخطيب ولهجته، وكلاهما يرتبط ارتباطاً لا انفكاك له بنَفَس الخطيب . والجملة الطويلة يحتاج إلقاؤها إلى نَفَس طويل، وهذا ما لا يستطيعه إلاّ النّزْر اليسير من الخطباء، بل إنَّ الخطيب مهما طال نفسه لا يتمكَّن من النطق بالجمل الطويلة متتالية مع محافظته على قوّة صوته ونشاط لهجته من بداية نطقه بتلك الجُمَل الطويلة بمآزق ، منها:

أ–أن يختلَّ توازن صوته ولهجته، وينتقل من النشاط إلى الفتور إن استمرَّ في إلقاء التركيب الطويل إلى نهايته، فيترتَّب على ذلك اضطراب طريقة الإلقاء وفَقْدِ الإيقاع المؤثِّر في أُذن السامع.

ب–أن ينقطع نَفَس الخطيب أثناء نطقه بالتركيب الطويل قبل أن يبلغ نهايته فيُضطرُّ للسكوت، فيترتَّب على ذلك انقطاع تمام معنى الكلام عن المستمع وعدمُ تحقيق فائدته المرجوَّة في نفسه. ونضيف إلى هذا أيضاً أنَّ الخطبة التي تغلِب عليها صبغة إثارة العواطف وتحريك المشاعر تحتاج في التعبير عن معانيها إلى العبارات الخاطفة والجمل القصيرة التي تتناسب مع جوِّ العاطفة الثائرة، ويبقى فيها صوت الخطيب مدويّاً ولهجته قويّة ونَفَسُه نشيطاً.

وأمّا إذا طالت العبارات وكثرت ألفاظ التركيب الواحد منها، فسينشأ عن ذلك فتور الإلقاء في مواطن الحماسة وضعف الصوت في موضع القوّة فتفقد الخطبة بهذا سلطان تأثيرها في النفوس واستيلاءَها على المشاعر.

ويحسن بنا بعد هذا البيان أن نستشهد على ما ذكرناه بمقطع من إحدى خُطب الرسول ﷺ نتعرّف منه مدى أهميّة قِصَر التراكيب في الخُطبة.

خَطَبَ رسول الله ﷺوكان مما قال"يا أيُّها الناس:كأنَّ الموت على غيرنا كُتب وكانّ الحقّ على غيرنا وَجَب وكأنّ الذي نشيّع من الأموات سَفْرُ عمّا قليل إلينا راجعون، نؤدِّيهم أجداثَهم ونأكل تُراثَهم كأنّا مخلّدون.قد نسينا كلَّ موعظةٍ، وأمنّا كلّ جائحةٍ طُوبى لمن شغله عيبُه عن عُيوب الناس . طُوبى لمن طاب كَسْبُه ، وصَلُحتْ سريرتُه ،وحَسُنت علانيتُه،واستقامت طريقتُه"فنلاحظ في ها المقطع الخطابيِّ البليغ كيف جاءت فيه العبارات والجملة قصيرة موجزة بليغة معبِّرة فأضْفَت على الخُطبة بهاءً ورونقاً وجمالاً،وروعة ومنحتها دقَّة وإحكاماً ومكَّنتها من الاستيلاء على الأسماع والتأثير العميق في النفوس.

ثالثا–خصائص الأسلوب الخطابى:

1 – التصرف فى فنون القول : من الأوصاف التى يجب أن يتصف بها الأسلوب الخطابى : التصرف فى فنون القول ، بمعنى أن يعبر عن المعنى بتعابير مختلفة ، من تقرير ، إلى تعجب ، إلى تهكم ، إلى نفى ، لكى يكسب كلامه جدة ، ولئلا يذهب نشاط السامعين ، ويعتريهم السأم والملل . فعلى الخطيب أن يغاير فى أسلوبه ، ويكرر المعانى بأساليب مختلفة ، فاللغة العربية غنية بالألفاظ ، متشعبة الأساليب ، وفيها من طرائق الحقيقة والتشبيه ، والاستعارة والمجاز ، ما يسد الحاجة ، ويمد الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول ، وأنواع التعبير .والنفس البشرية بطبيعتها – كما سبق القول – ترفض الاستمرار على حال واحدة فى مختلف شئون حياتها ، وتنزع دوما إلى التغيير والتبديل تخلصا من السآمة والملل ."فقد جبل الإنسان على الملال من الاستمرار على شىء واحد ، فكلما انتقل من أسلوب إلى أسلوب انشرح صدره ، وتجدد نشاطه ، وتكامل ذوقه ولذته ، وصار أقرب إلى فهم معناه والعمل بمقتضاه ، وكان كمن انتقل من بلد إلى بلد ، أو من بستان إلى بستان ، أو فاكهة لذيذة إلى أخرى ، وفى ذلك ما فيه من ترويح النفس وتنشيطها ، قال أبو على القالى : التفنن موجب لإيقاظ السامع وتحريكه للجد فى الإصغاء ، فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سَنَنِهِ المسلوك

ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب.والقرآن أعدل شاهد على التفنن مع متانة الأسلوب وحسن السياق ، وعذوبة الألفاظ ، ودقة المعانى وبعدها عن مظنة التكرار ، وذلك كما فى قصة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة وهبوطه من الجنة ، وكما فى قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه ومع أبيه وقومه ، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون فإن هذه القصص ذكرت فى القرآن الحكيم فى عدة مواضع مع تفنن فى العبارة مما يظنه الجاهل بأساليب البلاغة تكراراً وليس به ، بل هو غاية فى الإبداع ونهاية فى الإعجاز " .ولعل من المناسب أن نذكر هنا أهم ألوان التعبير ، وأبرز أنواع الأساليب فى اللغة العربية حتى ينتفع بها الخطباء ، ونحقق هدفا منشودا وفائدة مطلوبة لهذا المجال ، ومن أبرزها :

أ- الإخبار:مثاله قول سيدنا على ﷺفى إحدى خطبه" أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت[3] بوداع ،وإن الآخرة قد أشرفت باطِّلاع[4] ، وإن اليوم المِضْمَار[5] وغدا السباق ".

ب- الأمر : ويكون بصيغه المختلفة ، وهى المضارع المسبوق بلام الأمر ، واسم فعل الأمر مثال قول سيدنا على ﷺ:" لتكن الدنيا فى أعينكم أصغر من حُثَالةِ القَرَظِ [6]، وقُرَاضَةِ الجَلَم [7] ، واتعظوا بمن كان قبلكم أن يتعظ بكم من بعدكم ،وارفضوها ذميمة فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم " .

ج- النهى:مثال قول سيدنا أبى بكرﷺفى خطبته بعد وفاة الرسول ﷺ:"ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم،ولا يفتننكم عن دينكم ، فعالجوه بالذى تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم " .

د- القسم : مثال قول سيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺفى إحدى خطبه : " وايم الله إنى لأقول هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم عندى " .

هـ- الاستفهام:مثال قول سيدنا علىﷺ فى خطبه"أين من سعى واجتهد،وجمع وعَدَّدَ ، وبنى وشيَّدَ ، وزخرف ونجَّدَ ، وبالقليل لم يقنع، وبالكثير لم يمنع ؟ أين من قادوا الجنود ،ونشروا البنود ؟ أضحوا ، رُفاتا ، تحت الثَّرى أمواتا ،وأنتم بكأسهم شاربون ، ولسبيلهم سالكون

عباد الله ، فاتقوا الله وراقبوه ، واعملوا لليوم الذى تسير فيه الجبال ، وتشقق السماء بالغمام ، وتطاير الكتب عن الأيمان والشمائل ، فأىُّ رجلٍ يؤمئذٍ تُرَاك ؟ ، أقائل : هاؤم اقرؤوا كتابيه ؟ أم يا ليتنى لم أوت كتابيه ؟ "

---

[3] أعلمت بفنائها وذلك بما ظهر فيها من تقلب حالها وقضاء الموت على أهلها .

[4] إذا كانت الدنيا فى إدبار فإن تقلب الليل والنهار وانقضاء الأزمان والأعصار بما اشتملت عليه من خصومات بين الخلق لم يقض فيها ، وأعمال برٍّ لم يوف أهلها أجرهم عليها ومظالم لم ترد إلى أصحابها كل ذلك يقضى بوجود عالم آخر يملكه من خَلَق الخلائق فى غاية النظام والدقة والإبداع فوجب فى العقل ألا يفوته حساب مخلوقاته على إخلالهم بنظامه فى الكون وإنكارهم لفضله عليهم .

[5] المضمار هو الموضع والزمن الذى تضمر فيه الخيل بأن تربط ويكثر ماؤها وعلفها حتى تسمن ، ثم يقلل علفها وماؤها ويجرى بها فى الميدان حتى تهزل فيذهب سمنها وتبقى عضلاتها .

[6] شجر يدبغ به الجلد ، وقيل ورق السَّلَم الذى يدبغ به أيضا .لسان العرب 5 / 3593 .

[7] القطع والجلامة ما جز من الشاة من شعر ونحوه .لسان العرب 1 / 666 .

و- الاستنكار : مثال قول داود بن على فى خطبتة له بالمدينة : " أيها الناس حَتَّامَ[8] يهتف بكم صريخكم ؟ أما آن لراقدكم أن يهبَّ من نومه ؟ ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، أغركم الإمهال حتى حسبتموه إهمالا ؟ " .

م- التعجب:مثال قول أحد الخطباء فى خطبة له" ما أجلَّ القلوبَ حين تستضىءُ بنور الإيمان ، وما أعظمَ النفوسَ حين تستقيمُ على هَدْيِ القرآن ، فليس كالإيمان نور يضىء فيكشف ظلمات الغى والضلال ، وليس كالقرآن منهاج ينجو به من التواء مسالك الحياة " .

ن- التشويق : مثال قول الرسول ﷺ " ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ ، أفشوا السلام بينكم "ومثال قول سيدنا على رضي الله عنه فى خطبة له : " ألا أنبئكم بالعالم كل العالم ؟ ، من لم يزين لعباد الله معاصىَ الله ، ولم يؤمِّنْهم مَكْرَهُ ، ولم يؤيِّسهم من رَوْحِه[9] " .

وهناك ألوان أخرى للأسلوب : كالعرض ، والحض ، والتهكم ، والنداء ، ولكن لعل فيما استشهدنا به تحقيق المقصود فاكتفينا به .

ثانياً : حسن التآلُف بين الكلمات : من خصائص الأسلوب الخطابى حسن التآلف بين الكلمات والمراد به تآخى النغم ، بحيث تنساب الكلمات على اللسان فى يسر وسهولة ، ويحسن وقعها فى الأسماع ، فلا تكون واحدة منها نابية عن أخواتها ، أو ساكنة فى غير مستقرها ، فتكون قلقة فى النطق ، وثقيلة على السمع .

ثالثاً : تنوُّع الأسلوب بتنوُّع المقامات : ففى مقام التحميس والتهديد تختار الأساليب الفخمة والعبارات الضخمة ،وفى بعض مقامات التأبين وإظهار الألم والأسى تختار العبارات السهلة الرقيقة المؤثرة .وبمراعاة سن الخطيب ، ومنصبه ، وعمله ، وما يليق صدوره عنه ، وما لا يليق ، فلكل مقام نوع من الأساليب.ولكل قوم خطاب ، فالعامة تختار لهم العبارات الساذجة حتى لا تعلو على أفهامهم ، ولا تسمو على مداركهم ، والعلماء يخاطبون بعبارات منتقاة دقيقة محكمة .والمتدينون يستشهد لهم بشواهد من الدين ، ويحلى الكلام بمقتبسات من الكتب المنزلة ، والذين شغفوا بآثار الأقدمين يرطب الكلام ببعض أمثالهم وقصصهم وحكمهم ، والمأثور عنهم ، ولكل خطيب عبارات تستحسن منه ، فمن الخطباء من لا يَجْمُل منهم الهزل ، ولا يليق بهم إلا الجد ، فلا يصح أن يكون فى كلامهم إلا ما هو مقبول منهم ، ومن الخطباء من يجمِّل خطبه ببعض المداعبات ، فيحسن أن يكون ذلك منهم بقدر محدود ليستروح به السامعون .

وهكذا يجب على الخطيب أن يلاحظ فى أسلوبه وعباراته أحوال السامعين ، وما يقتضيه المقام ، وما يحسن منه وما لا يحسن .

رابعاً : تزيين الكلام بالسجع القليل غير المتكلَّف : والسجع هو التزام حرف معين فى أواخر الجمل ، وله وقعه على أذن المستمع ، وينبغى على الخطيب ألا يستكثر منه لأنه حِلْيةٌ ، والجمال فى الحِلْيَةِ أن تكون قليلة وغير متكلفة ، فالخطيب إذا أخذ من السجع ذلك القدر فى خطبته حسنت خصوصا إذا كانت فى قوم يؤثر فيهم ذلك النحو من الكلام كأصحاب اللغة ، فإن الكلام الموسيقى المسجوع يهز نفوسهم ، واعتبر فى ذلك بأمثالهم وحكمهم فإنك تجد السجع أَبْيَنُ أوصافها . غير أنه يجب أن يلاحظ أن السجع لا يليق فى

[8] أصلها : حتى ما .

[9] أى رحمته .

بعض الخطب كالمرافعات القانونية ، فإنها لا يحسن فيها إلا الحقائق عارية ، وحسبها جمالا أنها حقائق ، وليكتف من وسائل التأثير بجودة التعبير ، وحسن الإلقاء ، وإحكام الفكر والإتيان إلى القلوب من ناحية ما يؤثر فيها .

خامساً : إثارة الشعور :بالإضافة إلى الخصائص السابقة ، لابد أن يتسم الأسلوب الخطابى بالإثارة والاستيلاء على مشاعر المستمعين ، وذلك أن وضوح الأسلوب وملاءمته لمستوى الجمهور لا يكفى وحده ، لأن الخطابة لا يكتفى فيها بالإقناع ، بل لابد معه من إثارة الشعور وتوجيه السامعين إلى الهدف الذى يقصده الخطيب . وهذه القوة هى التى تمزج مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب ،لذلك قيل : إن الذى يكتفى بالإقناع دون التحميس متكلم لا بليغ ، وقالوا: إن الأهواء والعواطف هى الخطيب فى الجماهير ".

ويمكن ذكر وسائل الإثارة عند الخطيب فيمايلي ؟

1- يثيرها بقوة عاطفته : وحماسته إلى دعوته ، لأن الخطيب المنفعل ، الصادق العاطفة ، الحار الشعور ، تلتهب كلماته ، وتصل إلى القلوب عباراته ، فسرعان ما تمتزج نفوس السامعين بنفسه ، وتندفع إلى الوجهة التى يريدها .سمع الحسن البصرى خطيبا يعظ ، ولكن قلب الحسن لم يرق لخطبته ، فقال له : يا هذا إن بقلبك لشر أو بقلبى " .

2- الخيال فى العبارة: وذلك باختيار المفردات والعبارات التى تثير فى النفوس أخيلة وذكريات ، وتبعث صورا وأفكارا ملائمة للموضوع تتداعى وتتوافد ، وسبيل ذلك أن يتخير الخطيب الأساليب البيانية كالاستعارة والكناية والتمثيل ، ويجنح إلى التشبيه والتخييل والمبالغة المقبولة ، وبهذا تكتسب عباراته قوة وحرارة ، لأن الحياة تسرى فى العبارة على مقدار غناها بالمشاعر الحية ، والعواطف المشبوبة ، والصور الذهنية . ومن أمثلة ذلك قول أحد الخطباء القادة في مدح مقاتليه : " فمضى الشاب منهم قُدُماً ، حتى التَفَّت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّر جبينُهُ بالتَّربا ، وانحطَّت عليه طير السماء ، وتمزقتْهُ سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عينٍ فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من يدٍ قد أُبِينَت [10]عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا ، وكم من وجهٍ رقيق ، وجبين عتيق قد فُلِقَ بعُمُد الحديد ... ".

فهنا تخيل مثير وأى تخييل أقوى من تصوير أصحابه وقد عفَّر التراب جباههم ، ونهشتهم السباع والنسور ، والتقطت الطيور عيونهم ؟ وقد زاد هذا التصوير قوة بقولة إن هذه العيون طالما كانت بكت من خشية الله وتقاه ، وإن هذه السواعد التى أُبِينَت كانت تكأَةً لأصحابها فى الصلاة .

[10] أى : فصلت .

سادسا : حسن الأسلوب وجودته لا يعنى أن يتكلف الخطيب فيقع فيما نُهِىَ عنه,قال الله تعالى (قل لا أسألكم عليه من أجر،وما أنا من المتكلفين) [11].وأخبر ﷺ أن التكلف ، والتفاصح صفة مذمومة يبغضها الله عز وجل فقال" إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تَخَلُّلَ البقرة بلسانها "[12] .وقال أيضا " هلك المتنطعون "[13].قال ابن الأثير:التنطع فى الكلام : التعمق فيه والتفاصح "

ومن ذلك قول أحدهم : " لقد فاحت رائحة الشمس ، فعطّرت وَجَنَات القلوب ، وتركت قطرات الندى الإيمانى الأبيض على شفاه الخفقات الدافئة فى الصدور " .

سابعا : الاعتدال وعدم المبالغة ، خطب أحد الخطباء عن الفتيات وخروجهن ليلا ، وطالب الآباء أن يقوم أحدهم منتصف الليل ليتأكد من وجود ابنته على سريرها ، فخرج المصلون وهم يمقتون مثل هذه المبالغة .ونموذج آخر ذكره الشيخ عبد اللطيف السبكى فى مجلة الأزهر وذلك أن خطيبا خطب عن حديث"وأتبع السيئة الحسنه تمحها " فهوَّن أمر المعصية ، وأن الله فطر الناس عليها ، وقال بالحرف الواحد : " إن الله لم يقل للناس لا تسيئوا،ولكن قال إذا أسأتم فاستغفروا " !.إنه لا يسوغ أن تمتلك الخطيب عاطفته الجياشة فيتحدث بمبالغة دون اعتدال أو إنصاف ، بل إن المبالغة تؤدى إلى نتائج عكسية .

[11] سورة ص 186 .

[12] رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

[13] رواه مسلم وأبو داود .